

## الأسرة العلمية ظاهرة فريدة في الحضارة الإسلامية

تأليف: د. خالد حربي  
 عرض: علي عفيفي علي غازي

### مقدمة:

الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء النسيج الاجتماعي، والأسرة قديمة قدم الخليقة، ولذا فقد استوعبت عبر تاريخها الطويل ذلك الركام الهائل من الثقافة الإنسانية، الذي يعكس كل التغيرات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها المجتمعات، ولهذا كونت النقطة الأولى التي يبدأ منها التطور فهي الوسط الطبيعي الاجتماعي الذي يترعرع فيه الفرد، ويبدل الأبوان الغالي والنفيس من أجل تربية أبنائهم وتنشأتهم وتعليمهم، فالأبناء أمانة في عنق آبائهم، يولدون بقلوبهم الطاهرة الخالية من كل نقش وصورة، قابلون لكل ما ينقش عليها، ففي كثير من الأحيان يجد الفرد داخل إطار أسرته المناخ المناسب للإبداع الأدبي أو العلمي، فالأسرة هي المنشأ الذي تتفتح عليه عيون الفرد؛ ومن خلالها يتهيأ للتعامل مع مجتمعه الأكبر أو وطنه المحيط به، فإذا ما نبت في أسرة علمية فإن ميوله - في الأغلب الأعم - ستكون ميول علمية، ويأتي ذلك من عامل الوراثة الذي يعنى انتقال صفات الأفراد من جيل إلى آخر؛ فالطفل يرث من أبويه الصفات الجسمانية، كما يرث أيضاً القدرات العقلية، وأبرز هذه القدرات التي تورث هي الذكاء.

● صحفي وأكاديمي مصري.

فالأسرة هي مدرسة أفرادها التي تقوم بتشتتهم اجتماعياً، كما أنها تعمل على نقل الاهتمامات والميول من جيل إلى جيل، وتعودهم على التقاليد، وخاصة الآداب العامة والسلوك والدين والعلوم، ومن ثم فإن وظيفتها هي إعداد الفرد ليصبح نواة في المجتمع وأساساً من أسس تكوينه، الأمر الذي يساعد على تقويمه وتقويته، وهذه العوامل الوراثية ليست بالعامل الهين، وليست بالعامل الوحيد، ولكنها تؤثر تأثيراً إيجابياً هاماً في توارث ميول واهتمامات الآباء لأبنائهم، الأمر الذي يميز أسر بعينها ينبغ أفرادها في مجالات علمية واحدة، هذا ما يقدمه الدكتور خالد حربي من خلال تساؤله الذي يطرحه: هل شهد تاريخ علوم الحضارة الإسلامية وجود أسر علمية تربطها علاقات دم أو قرابة ؟ سؤال هام يحاول أن يجيب عليه في كتابه ”الأسر العلمية ظاهرة فريدة في الحضارة الإسلامية“، الذي صدر في مصر أخيراً عن المكتب الجامعي الحديث بالإسكندرية، ليؤكد على أن عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، الذي عاشه العالم الإسلامي قد شهد نبوغ أسر أو عائلات اشتغلت بالعلم، وكانت تربطها علاقات دم أو قرابة عملت وفق أطر معينه ومنهج محدد من أجل ازدهار وتقدم العلوم التي احتوتها حركة النهضة العلمية.

ومؤلف الكتاب الدكتور خالد حربي أستاذ وخبير المخطوطات بجامعة الإسكندرية ومن المهتمين بالتراث الإسلامي، وله أكثر من أربعين مؤلف تهتم بالتراث العلمي الإسلامي وله مسيرة علمية حافلة توجهها أخيراً بحصوله على جائزة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في مجال الفقه الطبي وتحقيق التراث وفق أصول فن التحقيق، والتي تعد من أرقى الجوائز العربية والعالمية، وجائزة الكويت للتقدم العلمي.

يؤكد من خلال مؤلفه هذا على أن تاريخ علوم الحضارة الإسلامية قد شهد العديد من الأسر العلمية التي يربط أفرادها قبل الاشتغال بالعلم علاقات دم أو قرابة، وربما كانت هذه العلاقات أحد الأسباب الرئيسية التي ساعدت على نبوغ تلك الأسر في المجال العلمي، وتعد مثل هذه الأسر ظاهرة فريدة تنفرد بها الحضارة العربية الإسلامية عن سائر الحضارات، هذه الأسر قامت بينها علاقات تعاون وتنافس وصراع، ومن أمثلة هذه الأسر أسرة بختشيوغ، التي نبغ أفرادها في علم الطب إلى درجة أنهم خدموا الخلفاء ابتداءً من الجد الأكبر ومروراً ببعض الأبناء والأحفاد، فضلاً عن إسهاماتها في حركة النقل والترجمة، وأسرة حنين بن إسحق التي اشتهرت في مجال الترجمة، وأسرة ثابت بن قرة، وأسرة موسى بن شاكر، التي نبغت في الفلك والهندسة والميكانيكا والمساحة والفيزياء، وأسرة بنى زهر في المجال الطبي، الأمر الذي يؤكد أن تاريخ العالم العربي

الإسلامي قد شهد أسراً علمية نبغت في مجالات علمية واحدة، ويحاول المؤلف أن يؤكد على أن النماذج التي قدمها للأسر العلمية التي شهدها التاريخ العلمي الإسلامي ليست كل الأسر بل هي عبارة عن نماذج تحاول أن تجيب على التساؤل الذي طرحته الدراسة (ص6)

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى مقدمة وبابين اشتمل كل باب منها على فصلين ثم اختتم بفصل أخير عن نتائج الدراسة، في الباب الأول عرف بأسر حركة الترجمة والنقل، وهي أسر بنو حنين بن إسحاق، وبنو قرة، وبنو بختشيو، وفي الباب الثاني عرض لأسر العلوم البحتة، وهي أسر بنو موسى بن شاكر، وبنو زهر، وخلص الباحث في النهاية إلى أن النهضة العلمية التي عاشها العالم الإسلامي كان من أبرز سماتها وجود أسر علمية نشطة تعمل وفق منهج محدد من أجل ازدهار العلوم، ولعبت دوراً بارزاً في حركة تقدم العلوم. ومن تحليله لهذه الأسر العلمية وتتبعها اتضح مدى التواصل العلمي بين أفراد الأسر والجماعات العلمية المختلفة رغبة في العلم الذي خلع على أهله في ذلك العصر إجلالاً وتوقيراً من العامة والخاصة. وقد ساد بين هذه الأسر نظم من العلاقات قائمة على التعاون والمحبة تربطهم بعضهم البعض من أجل تحقيق أهداف الأسرة ككل.

كما اتضح من خلال البحث أن النشاط العلمي لمعظم الأسر العلمية التي تناولها المؤلف لم يقتصر على أفراد الأسرة الدموية؛ بل إن الأسرة الواحدة ضمت في بنيتها العلمية أفراداً لا تربطها بالأسرة صلات دم أو قرابة.

وفي الفصل الأول قدم المؤلف نموذج لأسرة نبغت في مجال حركة الترجمة والنقل في العلوم الطبية، وهي أسرة حنين بن اسحق، وذلك بترجمة مؤسسها وخصائص عمله العلمي من إرساء قواعد علمية ثابتة، واتساع مجال نشاط الأسرة إلى تحقيق النصوص الإغريقية، وترجمة الكتب من علوم الحضارات الأخرى إلى اللغة العربية، ثم عرف بإسحق بن حنين الذي تفرد عن أبيه وأستاذه بميزة هامة في تقاليد الأسرة وهي تنوع التخصصات في ممارسة العلم، فإذا كانت مدرسة حنين بن اسحق تخصصت في ترجمة ونقل الكتب الطبية؛ فإن اسحق بن حنين ترجم كتباً في الفلسفة والمنطق لأشهر الفلاسفة اليونانيين كأرسطو، كما ضمت الأسرة حبيش بن الأعسم ابن أخت مؤسسها، وكان أقرب تلاميذه إليه وأكثرهم قرباً وملازمة له، الأمر الذي يجعله أحد دعائم الأسرة الرئيسة التي ارتكزت عليها مدرسة حنين بن اسحق في الترجمة.

وفي الفصل الثاني تناول الدكتور حربي أسرتين برزتا كذلك في مجال الترجمة هما: بنو قرة، وبنو بختشيو. ضمت الأولى ثابت بني قرة الذي انصب على ترجمة ونقل المؤلفات الطبية، فضلاً

عن بعض الترجمات الفلسفية، وابنه سنان، وحفيده ثابت بن سنان، وضمت هذه الأسرة أفراداً لا ترتبط بصلات دم أو قرابة ببنيتها العلمية كعيسى بن أسيد؛ الذي تتلمذ على يد مؤسس الأسرة، وأظهر نبوغاً، واستحق تقديم ثابت بن قرّة له، للدرجة التي سمح له بمناظرته، وهو تقليد علمي لا يوجد إلا في المجتمعات العلمية المتقدمة الراقية في العلم. وأسرة بختشيوغ التي قدمت إلى بغداد ونبغت في الترجمات الطبية دون غيرها، واختصت كذلك بالتعليم الطبي، وأول من وفد منها إلى بغداد جورجيس بن بختشيوغ الذي استقدمه الخليفة العباسي المنصور، وصار طبيبه الخاص إلى أن توفى في خلافته، ثم استقدم المهدي من جنديسابور ولده بختشيوغ ليحل محل والده جورجيس فظل في خدمته وخدمة الهادي والرشيد طبيباً حاذقاً، وبعد وفاته استقدم الرشيد ابنه جبرائيل وصار طبيبه الخاص وجعله رئيساً للأطباء، وظل كذلك زمن الأمين والمأمون حتى توفى في خلافة الأخير.

وفي الفصل الثالث توقف الباحث أمام نقد وتقييم أسر الترجمة والنقل وإلى أي مدى ينطبق عليها مفهوم الأسرة العلمية، ودورها في النهوض بالحضارة الإسلامية، ليؤكد على أن المجتمع العلمي الإسلامي قد شهد إبان عصر الترجمة وجود أسر علمية، شهدت تعاوناً، وتنافساً، انعكس أثره على نهضة الحضارة الإسلامية.

وفي الفصل الرابع عرض لأسرة نبغت في العلوم البحتة كالفلك والهندسة والميكانيكا والمساحة والفيزياء وهي أسرة بنو موسى بن شاعر التي ضمت الأبناء الثلاثة "محمد وأحمد والحسن" لموسى بن شاعر، الذي لم يقدر له أن يعمل في تلك الجماعة العلمية لأنه توفى وهم أطفال صغار، فكون هؤلاء الأخوة الثلاثة جماعة علمية متأثرة قدمت أعمالاً جليلاً، وازدادت حصيلتهم العلمية، وتطورت أساليبهم التطبيقية إلى الدرجة التي مكنتهم من القيام بأول وأهم وأخطر عمل، وهو قياس محيط الأرض، الأمر الذي مكنها من أن تلعب دوراً في تاريخ العلم وتشكل مكاناً رئيساً في تاريخ التكنولوجيا بصفة خاصة. وقد تناولوا هذه الأسرة من خلال توضيح تكوينها العلمي وكيفية عملها، ومنهجها العلمي والتطبيقي، وأهم إنجازاتها العلمية، وأثرها في النهضة الإسلامية، للدرجة التي جعلت مؤرخي العلم يجمعون على أن أعمال هذه الأسرة تدل على عبقرية وذهن متوقد مبدع.

أما الفصل الخامس فكان لأسرة بني زُهر التي ظهرت في الأندلس، ونبغت في مجال العلوم الطبية، وشكلت مكاناً رئيساً في الطب العربي والعالمي، فرأينا رأس هذه العائلة أبي مروان يتقن

صناعة الطب حتى صار خبيراً بأعمالها، ومشهوراً بالحدق فيها إلى الدرجة التي معها انتشرت أخباره في مختلف أقطار الأندلس، ثم حرص على نقل خبرته إلى ابنه أبي العلاء الذي أظهر نبوغاً مبكراً واستمراراً للتواصل العلمي بين أفراد الأسرة لحق أبي مروان بن أبي العلاء بأبيه في صناعة الطب درساً وممارسة؛ حتى أصبح لا يوجد من يماثله في إدراكه لأعمال الطب، ثم برز الحفيد أبو بكر محمد بن أبو مروان لتتأكد به وتستمر التقاليد العلمية في أسرة بني زُهر لتتواصل إنجازات الأسرة العلمية التي عملت على تطور وتقدم علم الطب في العصور اللاحقة بما قدمته من إنجازات طبية أفادت منها البشرية كلها.

وفي نهاية الكتاب خلص الدكتور حربي إلى نتيجة نهائية مهمة تدعو الباحثين إلى الاهتمام بدراسة الأسر العلمية في تاريخ الحضارة الإسلامية، بالبحث والتنقيب عن مؤلفاتهم التي لا تزال تهجع بسلام على أرفف المكتبات مخطوطة، وذلك بتحقيقها ونشرها لتفيد منها الإنسانية في مختلف فروع العلوم، وتؤرخ لدور العرب والمسلمين في تاريخ العلم العالمي لتعرف على الأوجه المشرقة في التاريخ العربي والإسلامي.

ومن الجدير بالذكر أن النتائج التي توصل إليها الباحث تعد إضافة لحقل تاريخ العلوم عند العرب، وفلسفة العلوم والحضارة الإسلامية، كما أنه اعتمد في إعداد الكتاب على مصادر أصلية، واعتمد أيضاً على مراجع علمية رصينة، كما التزم بالموضوعية والحيدة، الأمر الذي يجعل كتابه إضافة لحقل العلوم الإنسانية.